مباحث

تعدد الزوجات . الطلاق . تحديد النسل
التبرج والسفور . التعطيل

تعدد الزوجات

يقول الله تعالى — وهو أصدق القائلين — : ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾ وهو قول صريح واضح لا لبس فيه ولا إبهام ؛ ولايخفى مافى تعدد الزوجات من مصلحة عظيمة وحكمة بالغة ؛ فإن الرجال — فضلا عن زيادة عدد النساء عليهم — معرضون لنقصان مستمر ، بسبب قيامهم بشاق الأعمال ، وبأعباء الحروب وغيرها ، وتعرضهم للمهالك ، وليس من الحكمة فى شيء : أن ندع جانباً كبيراً من بناتنا بدون إحصان

إن الأوروبى — مثلا — لايبيح له دينه التعدد ؛ لكنه يبيح لنفسه مصاحبة المئات من الفتيات ، ويرى والد الفتاة فتاته مع عشيقها فيسر ويغتبط ، بل ويمهد لهما جميع الوسائل ، وكافة السبل ، المؤدية لراحتهما ، وطمأنينتهما ؛ أما ديننا الذى يحرم على الرجل : النظر إلى المرأة ، ويحرم على المرأة : النظر إلى الرجل ؛ فقد كان لزاماً عليه أن يوجد لهذا الضيق فرجا ، ومن هذا المأزق مخرجا ؛ فجعل النكاح مكان السفاح ، ووضع الحلال مكان الحرام ؛ وإلا فمن للعوانس وربات الخدور ؟ ألهن العهر والفجر(١) ، ولنا العفاف والطهر ؟ أم لهن الجحيم ولنا النعيم ؟ ! وهل من المستحسن أن يكن ضرائر ، أم يكن فواجر ؟

وقد شنع فيلسوف الإسلام المرحوم الشيخ محمد عبده على التعدد ؛ وهى سقطة شائنة ، رغم ما كان عليه رحمه الله تعالى من رأى قويم وفكرة صائبة .

وقد جزم الكاتب الإنجليزى الكبير « برناردشو » فى كتابه الحياة الزوجية : بأن الدولة الإنكليزية ستضطر — حسب تقدمها المطرد — إلى اتخاذ الإسلام ديناً لها قبل انقضاء هذا القرن .

وإذا تأملت فى الشرائع الوضعية التى أبطلت تعدد الزوجات ؛ تجدها اضطرت إلى قبول ما هو شر منه : إذ فتحت باب التدهور الأدبى على مصراعيه . فاضطرت إلى الاعتراف

---

(١) الفجر : الانبعاث فى المعاصى والزنا ، وفجر : فسق وكذب .

بمشروعية العلاقات الآثمة بين الجنسين، وبمشروعية الوساطة فى هذه العلاقات ؛ فانحط الذوق الأدبى فى المجتمعات بدرجة أنهم يفخرون ويتباهون بما يوجب الخزى والعار، بل بما يستوجبون عليه شرعاً : الجلد، والرجم، والقتل ! ثم انتهى أمر هذه الشرائع بقبول مبدإ تعدد الزوجات، ولكن تحت ستار المخادنة .

والمخادنة هذه : زواج حقيق، لكنه غير مسجل بعقد، أى أن الرجل لا يتقيد حيال المرأة بأى حق من الحقوق ؛ فتكون عرضة للطرد بأولادها — فى أى وقت شاء، وفى أى يوم أراد — دون أن يكون لها أية حقوق عند الرجل الذى قد يكون عاشرها سنين عدة .

لكن الإسلام — الذى كانت مهمته الأولى : المحافظة على حقوق الأفراد والجماعات — شرع مبدأ تعدد الزوجات ليحمى المرأة من عدوان الرجل ؛ فلم يقبل أن تكون فى علاقاتها معه إلا على حالة واحدة : وهى أن تكون زوجة، لها ولأولادها حقوق مقررة لايستطيع الرجل بحال التنصل منها . وفى الوقت نفسه حرم الزنا، والمخادنة، وجميع مامن شأنه الحط من مستوى المرأة، وإنزالها من مرتبة الإنسانية إلى مرتبة الحيوانية !

والآن أمامنا فيما يتعلق بالحياة الجنسية نظامان : أحدهما يبيح تعدد الزوجات ويحرم ما وراء ذلك من العلاقات الآثمة، ويضرب بيد من حديد على أيدى المتلاعبين بالأعراض، الخائضين فى ضروب الفحشاء والفساد ! والآخر يحرم تعدد الزوجات ويبيح سائر العلاقات الآثمة، ويجيز التلاعب بالأعراض، والخوض فى ضروب الفحشاء .

طبعاً لا يوجد إنسان عنده ذرة من عقل، فيختار القسم الثانى، ولا توجد نفس كريمة ترضى أن يكون حظ النساء منه كحظ البهائم العجماء ؛ وفى أى دين، أو أى نظام، أو أى عرف ؛ تكون الخليلة أفضل من الحليلة ؟ !

ويقولون أيضاً : إن الرجل الذى يعقب أولاداً من زوجتين ؛ يعتبر فى نظر المجتمع آثما ؛ لأنه يخلق العداوة بين نسائه، والبغضاء بين أبنائه . فهل معنى هذا أن الرجل الذى يعقب أولاداً من امرأتين إحداهما شرعية والأخرى غير شرعية لا يعتبر آثما، ولا يكون خالقاً للعداوة بين نسائه وأبنائه ؟

والذى يدعو للعجب أن يقوم أناس ينتصرون للمرأة ، ويدعون إلى عدم التعدد ، ويصفونه بأشنع الصفات ، ويسمونه بأقبح السمات ؛ مع أن النتيجة المحتمة لما يدعون إليه. هى انتشار الزنا ، وفشو الأمراض ، وهتك الأعراض !

وهل من الانتصار للمرأة أن يوقعوها فى هذا الحضيض ؛ لتصبح زوجة مجردة من الحقوق لرجل يستغل طيباتها ، حتى إذا قضى طلبته ، وأشبع نهمته ؛ ألقى بها وبأولادها إلى حيث تتكفف الناس ، وقت لا تجد عطفاً عليها من الناس ؟ !

إن من سن السنن ، وشرع الشرائع ، وقنن القوانين ، ومن هو أدرى بالخلق من الخلق : قد أباح التعدد ، فهل بعد هذا يجوز لرجل — يؤمن بالله واليوم الآخر — أن يعترض هذه المزايا ، ويسفه تلك النظم ، بدعوته لعدم التعدد ؟

هذا وقد ثار قوم على هذا النظام الدقيق ، ودعوا إلى نبذه ، وشوهوا جماله ، وغضوا من حكمته ؛ داعين إلى وجوب الاقتصار على واحدة ، وزعموا أن قوله تعالى ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾ وقوله عز من قائل ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ قيد فى عدم التعدد . وهو منطق غريب لا يستقيم مع نظم الكتاب العزيز الذى ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ وإذا قلنا بذلك : كان تناقضاً ولغواً يتنزه الكتاب الكريم عن مثله . وقد جاءت السنة المطهرة بالتعدد : فقد كان غيلان الثقفى يمسك عشرة نسوة ؛ فلما جاء الإسلام : أمره الرسول عليه الصلاة والسلام بالاكتفاء بأربع نساء فحسب .

وقد تصدى لهذا الموضوع الخطير بعض العلماء — أقول بعضهم ولا أقول كلهم — لأن فيهم الثقاة التقاة ؛ ومنهم حملة الشريعة ، وهداة الأمة ؛ وقد قال هذا البعض قولا خالف فيه القرآن والدين وما أجمع عليه أئمة المسلمين ، ومنهم من قارب هذه المخالفة !

فعلى رسلكم أيها القائلون ؛ فالله عليم بما تقولون وما تفعلون ، وما تظهرون وما تبطنون !

فلدينا الكتاب الكريم الذى يجب علينا أن نستقرئه ونستوضحه إذا حزبنا أمر أوأعوزنا

دليل . ومن تبع هدى القرآن فلن يضل أبدا ولن يشقى !

هذا وأول من جهر بهذا الرأى الفاسد : المرحوم وحيد الدين الأيوبى(١) وكتب عنه بالجرائد السيارة ، وقد أعاننى الله تعالى بالرد عليه فى الجرائد التى نشر بها رأيه فى حينه ، ونظمت قصيدة فى أحد ردودى عليه نشرت فى عام ١٩٢٠ ميلادية أذكر منها : —

أنا يا وحيد أراك أكبر كاتب ... قد أتقن التفريع والتأصيلا
وأراك أول باحث تعنو له ... كل القرائح إذ يقيم دليلا
إن الكتاب أباح أربع نسوة(٢) ... إلا لخائف جوره فيميلا (٣)
والجور غير محقق فى كل من ... عرفوا النبى(٤) وصدقوا التنزيلا
ماذا عرفت من الحديث وما الذى ... أدركت حتى تحسن التأويلا
بالله قل - فالمرء يعرف نفسه - ... وامنح ذوى الحاجات منك السولا
هل أنت مجتهد أم انت مقلد ؟ ... أم لا ولا بل قد بعثت رسولا ؟
أم أنت بالبعض الموافق مؤمن ... وترد ما أمسى عليك ثقيلا ؟
أم أنت تنصر فرقة أم صاحباً ... للشرع قد عادى وضل سبيلا ؟
مهلا ولا تمرح فلست بخارق ... أرضاً ولن تصل الشوامخ طولا (٥)
لما اكتسى غيلان سربال الهدى ... وأتم عشراً حين كان جهولا
قال النبى له : لتمسك أربعاً ... ودع البواقى . فافهم التمثيلا
ما إن رأينا فى البرية مسلماً ... يدع القران وينصر الإنجيلا !

---

(١) وقد كان — رحمه الله تعالى — من أنصار اللغة العربية ومحققيها .

(٢) قوله تعالى ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾ .

(٣) قوله تعالى ﴿ وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾ .

(٤) عرفوه صلى الله تعالى عليه وسلم وتخلقوا بأخلاقه الكريمة ، وتمسكوا بهديه .

(٥) فى هذا البيت تضمين لقوله تعالى ﴿ ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ﴾ .

وقد أفحمته الحجة ، وألجمه الدليل ؛ فرد رداً مبتسراً يستتر به موقفه من معانى القرآن الجليلة الجميلة ؛ قال غفر الله تعالى زلته :

ما ادعينا وما مرحنا كما عدا علينا به كاتب فى لمز سامحه الله .

وترك الجدل والجدال فى أمر لا يسلكه إلا من أنار الله تعالى بصيرته ، وأنقى سريرته .

هذا وقد سار على هذا المعنى كثير من المفكرين والكتاب ؛ سائرين وراء رغبة جامحة فى نفوسهم ، ضاربين صفحا عما يريده الله تعالى من نظام كونى دقيق ، وما تحويه آياته البينات من معان سامية !

هذا وقد ذهب الأستاذ الكبير : المرحوم عبد العزيز فهمى « باشا » إلى أن قوله تعالى « فانكحوا ما طاب لكم من النساء » قولا تهكمياً لايراد به الإباحة . وأن معنى قوله جل شأنه « مثنى وثلاث ورباع » إلى مالا نهاية له من العدد ؛ من غير تحديد بأربع ، وردد فى هذا المعنى وأطال .

ورغم سعة علمه — رحمة الله تعالى عليه — وتقديرى لفنه الذى انقطع له فبالغ فى إتقانه ؛ فإنى أقول : إن قوله هذا غير جدير بالرد ؛ إذا ما ضممنا إلى الآية : ما ورد عن الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، وما سارت عليه صحابته رضوان الله تعالى عليهم .

فإن الخالق تعالى حين يقول ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾ لايجوز لمخلوق أن يقول : إن هذا على سبيل التهكم ، وإن هذا العدد لا نهاية له يوقف عندها .

وليس لكائن من كان أن يقول : لا . إن هذا نظام بال عتيق ؛ لا يتفق مع ما نحن عليه من تقدم وحضارة .

قال تعالى ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين ﴾ والمنع من الجمع بين الأختين ؛ يحمل معنى إباحة الجمع بين من عداهما بمفهوم المخالفة — كما يقولون —

وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « لا تنكح البنت على عمتها ، ولا على خالتها ، ولا على ابنة أخيها ، ولا على ابنة أختها » وهذا المنع يحمل بين طياته إباحة الجمع بين من عداهن ،

وهذا الأمر من الوضوح والظهور بما لايدع شكا أو خلافاً .

هذا وقد اختلفت الآراء ، وتشعبت الأهواء فى التعدد ؛ فمن قائل بإباحته إباحة مقيدة ، ومن قائل بحظره ومنعه ، ومن قائل بتحريمه وذمه .

والذى يدرس نظام التعدد — على ضوء ما جاء به القرآن الكريم والدين الحنيف — يجده من أدق النظم الاجتماعية وأرقاها ، وأوفاها بحاجة المجتمع ؛ أياً كان جنسه ولونه ودينه .

يقول الله تعالى ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾ فهل لمخلوق بعد قول الخالق تعالى ﴿ ماطاب لكم ﴾ أن يقول : لا . لا . يجب أن نجعل الزواج بقيود وحدود ، ويجب أن يتوافر فى طالب التعدد كيت وكيت .

وإذا قلنا بما يقوله بعضهم من وجوب توفر الميسرة عند طالب التعدد ؛ فلم لا نقول بوجوبها أيضاً عند طالب الزواج الأول ؟

وذلك لأننا إذا حرمنا من الزواج من لا يستطيع أن يقوم بأود اثنتين ؛ وجب علينا أن نحرم من الزواج أصلا من لا يستطيع أن يقوم بأود واحدة . وهذا ما لا يقره عرف أو شرع أو دين !

ذلك لأن تقدير اليسر وعدمه متروك لأهل العروس ؛ فهم وحدهم الذين يقدرون مدى استطاعة الزوج الإنفاق على ابنتهم .

وما يدرينا لعل عائل الفتاة نفسه لايستطيع أن يطعمها أو يكسوها . وينادى ربه صباح مساء أن يرزقه بمن يحمل عنه هذا العبء الثقيل .

وقد جاء فى الأثر : أن الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه قد أباح التعدد مع الفقر ، وجعله سبباً من أسباب اليسر . ولعل فى ذلك حكمة لانعلمها .

وأكثر من هذا فإن محمداً عليه الصلاة والسلام قد مات ولم يشبع أهله من خبز الشعير : وعنده من عنده من الزوجات . فلم يكن ذلك منقصة فى حقه ، أو مذمة عرض نفسه فى الوقوع فيها !

وهل من الدين فى شيء ، أو من الحكمة فى شيء : أن تظل بناتنا فواجر بدون إحصان ، ونساؤنا عوانس بغير تزويج ؛ فى سبيل تقليد الأمم الأخرى الغير المسلمة التى تقول بعدم التعدد ؟

ومن العجيب أن يقوم أناس من بيننا ، ومن أبناء جلدتنا وديننا ، فيدعون إلى عكس ما يدعو إليه الدين ، بل بما تدعو إليه المسيحية والنصرانية !

ويسيء إلى الإسلام أشد الإساءة ، ويستوجب المقت كل المقت : من يتلاعب بألفاظ القرآن الكريم ؛ لنصرة مبدأ سقيم ، ورأى تافه عقيم .

هذا وقد قرأنا لمن يكتب ، وسمعنا لمن يقول : إن الله نفسه قد حرم التعدد حيث قال ﴿ وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾ وقال فى موضع آخر ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ فظهر لمن كتب ، ولمن قال — حسب فهمهم الخاطيء — أن الله تعالى قد حرم التعدد تحريماً صريحاً ؛ حيث علقه على القدرة على العدل ، ونفى فى الآية الأخرى استطاعة العدل .

وهذا الفهم لو سرنا عليه : لكان فى القرآن تناقض ولغو ينزه عن مثله ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ .

وإنما أراد تعالى فى الآية الأخرى ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ : العدل فى المحبة القلبية . لذلك « كان النبي صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل ، ويقول : « اللهم هذا قسمى فيما أملك ، فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك » يعنى بذلك المحبة القلبية .

يؤيد ذلك باقى الآية الكريمة ﴿ فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ﴾ .

هذا ومن حق الزوجة الأولى — إن خشيت على نفسها أو دينها من زواج زوجها عليها — أن تطلب الطلاق ؛ خصوصاً إذا تزوج بمن دونها حسباً ونسباً .

وقد روى أن بنى هشام بن المغيرة ذهبوا إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يستأذنونه فى تزويج بنت أبى جهل بن هشام لعلى بن أبى طالب ؛ فغضب صلى الله تعالى عليه

وسلم ، ولم يأذن بهذا الزواج إلا على شريطة طلاق ابنته فاطمة رضى الله تعالى عنها ؛ حتى لا تطعن فى كرامتها ، أو تفتن فى دينها . وقال « إن بنى هشام بن المغيرة استأذنونى فى أن يزوجوا ابنتهم على بن أبى طالب ؛ فلا آذن لهم ، ثم لا آذن لهم ، ثم لا آذن لهم ؛ إلا أن يحب ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى ؛ إن ابنتى بضعة منى : يريبنى ما يريبها ، ويؤذينى ما يؤذيها » .

فمن هذا يعلم أنه لا يجوز إيذاء الزوجة بالتزوج عليها بمن هى دونها حسباً ونسباً .

ويجب أن يكون التعدد بقصد الاستعفاف ، لا بقصد الإسفاف أو الإسراف . ولا يكون بقصد الإضرار بالزوجة الأولى ؛ كما كانت تفعل العرب فى الجاهلية .

قال شاعرهم يهدد امرأته بالضرة :

أكلت دماً(١) إن لم أرعك بضرة بعيدة مهوى القرط(٢)طيبة النشر(٣)

فجعل زواجه الثانى لكيد الزوجة الأولى وترويعها ؛ ونسى أن واجبه الأول أن يوفر لها أسباب الراحة والسعادة ؛ لا أن ينقب عن تعاستها وإشقائها . وأنه إن أحبها أمسكها وأكرمها ، وإن كرهها طلقها ولم يظلمها .

هذا وقد طعن كثير من سفلة البشر ، ومن أراذل المحترفين لمهنة التبشير ، فى محمد عليه الصلاة والسلام واتخذوا من زواجه مذمة يعيبونه بها ، ومنقصة يلصقونها به . وقالوا : إنه رجل شهوانى يميل إلى النساء « كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا » .

فى حين أن زواجه صلى الله تعالى عليه وسلم يسمو بإنسانيته إلى الحد الذى لا يجاريه فيها إنسان ، ولا يباريه فيها بشر !

فلو أراد أن يضم فى بيته كرام العقائل ، ونفائس الخرائد ؛ لكان له ما يريد من أسمى

---

(١) يدعو على نفسه بالفقر الشديد ؛ وقد كانوا حين يحل الفقر بأحدهم يفصد ناقته ويتلق دمها فى وعاء حتى يتجمد ؛ فيشويه ويأكله .

(٢) يكنى بطول رقبتها ؛ وهو من صفات جمال المرأة .

(٣) النشر : الريح الطيبة ، أو هو رائحة فم المرأة وأعطافها عند قيامها من النوم .

بيوت العرب ، وأجمل الجوارى ؛ من سبايا فارس والروم ؛ يرفلن فى حلل الدمقس ، ويتحلين بأفخر الجواهر ؛ ولكان سماطه كسماط قيصر وكسرى !

كيف لا : وقد كانت تحمل إليه الأموال حتى يضيق بها مسجده ؛ فلا يقوم وفى كفه منها شيء !

وما شبع هو وآله من خبز الشعير ؛ وحاله من الغنى والجاه : ما قدمنا وما وصفنا .

ولم يضم فى حريمه سوى المغتربات المكتهلات : التى مات عنها زوجها ؛ فلم تجد مأوى ، والتى عز عليها العيش فى كنف غيره من الأزواج ؛ ولم تكن بينهن من فتاة عذراء سوى واحدة : هى عائشة ابنة رفيقه وصديقه أبى بكر الصديق « ثانى اثنين إذ هما فى الغار » .

ولو أردنا أن نصف ما لاقين فى كنفه من القلة وشظف العيش ؛ لما وسعنا هذا المؤلف .

وعند ما بلغت قسوة الحياة منتهاها ، وجاوزت الشدة مداها : نزلت آية التخيير .

« يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما » وقد أكرمهن الله تعالى بالتوفيق إلى حسن الاختيار ؛ واخترن دار القرار ؛ وقلن جميعاً : بل نريد الله ورسوله ! فتمت لهن بذلك السعادة ، وحزن الحسنى وزيادة !

وقد تزوج — عليه أفضل الصلاة وأتم السلام — بالسيدة خديجة رضى الله تعالى عنها ولها أربعون سنة ، وهو ابن خمس وعشرين سنة ، ولم يدفعه لزواجها سوى أنها خطبته لنفسها بنفسها ، وكانت من أعف النساء . وأعرقهن نسباً وحسباً ، ولها — بعد ذلك — فضل السابقية فى الإسلام ؛ فلم يتقدمها إليه رجل ولا امرأة . وماتت وسنها خمس وستون سنة ، وكانت مدة مقامها معه صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين سنة ، ولم يتزوج عليها حتى ماتت .

ولم يكن وفاؤه لخديجة رضى الله تعالى عنها : وفاء المتعة والحس ، بل وفاء الروح والنفس : فلقد فضلها على عائشة ؛ وهى أصغر زوجاته ، وأحبهن إليه .

فترى من هذا أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قضى عنفوان شبابه ، وزهرة حياته مع

خديجة ؛ ولم يتزوج غيرها ؛ وإنما تزوجها لإسلامها ، ومعاونتها له ومناصرتها إياه . فقل لى بربك : أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟ !

وتزوج بالسيدة سودة بنت زمعة رضى الله تعالى عنها . وكانت تحت السكران بن عمرو ؛ وكان قد أسلم قديما وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ، ومات حين قدما مكة . ولو عادت إلى أهلها ــ بعد موت زوجها ــ لعذبوها وفتنوها فى دينها ؛ فكفلها صلى الله عليه وسلم . وهو المثل الأعلى للهمة والنجدة والمروءة ؛ وكانت مسنة ، ولم يكن معه غيرها . ومكث معها خمس سنين إلى أن تزوج السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها فى السنة الأولى من الهجرة .

فترى من هذا أنه صلى الله عليه وسلم لم يتزوج السيدة سودة إلا لإيوائها وتعويضها خيراً من زوجها الذى مات معها ؛ حريصاً على إيمانه ، فاراً بعقيدته . وتألفاً لقومها وقوم زوجها الذين أسلموا ونالوا صحبته صلى الله عليه وسلم . فقل لى بربك : أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟ !

وتزوج بالسيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما . وكلنا يعلم من هو أبو بكر الصديق الذى كان معه ﴿ ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ ولم يتزوج بكراً غيرها ؛ وإذا علمت أنه لم يتزوجها إلا وهو ابن خمس وخمسين سنة ؛ علمت أنه لم يرد إلا مكافأة أبيها وإحكام الرابطة بينهما . وقد كانت رضى الله تعالى عنها واسطة فى نقل شتى الأحكام والتشريعات إلى سواد الأمة الإسلامية ؛ خصوصاً مايتعلق منها بالنساء ؛ لذا قال عليه الصلاة والسلام : « خذوا شطر دينكم عن هذه الحميراء » فقل لى بربك : أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟ !

وتزوج بالسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهما وكانت تحت خنيس ابن حذافة ومات عنها من جراح أصابته ببدر . وتزوجها صلى الله عليه وسلم مكافأة لها وحباً فى أبيها ــ الذى سره كل السرور هذا النسب الشريف ــ ورغبة فى إيوائها ، وتعويضها عن فقد زوجها الذى قتل فى سبيل الله ، وهو يدافع عن الله ورسوله ودينه . فقل لى بربك : أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟ !

وتزوج بالسيدة زينب بنت جحش ــ وهى ابنة عمته ــ وكان قد زوجها لمولاه زيد

ابن حارثة ؛ ليرفع من شأن الأسير الكسير ، ويعلى من قدره ؛ ويجعله أهلا لمصاهرة بنى هاشم ؛ مصداقاً لقوله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وقد تزوجها صلى الله عليه وسلم بعد طلاقها من زيد بوحى من الله تعالى للتشريع ﴿ لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم ﴾ أنظر آية ٣٧ من سورة الأحزاب .

وقد كان زواجه بها : إعفاء لها من إهمال يصيبها ، بعد طلاق يذلها ؛ فيقصى عنها الخاطبين الذين لا يتقدمون مختارين إلى مطلقات الأحرار ؛ فما بالك بمطلقات الأرقاء ! فقل لى بربك : أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟ !

وتزوج بالسيدة زينب بنت خزيمة : وكانت تحت عبد الله بن جحش رضى الله تعالى عنهما ؛ فقتل عنها يوم أحد . فتزوجها صلى الله عليه وسلم إيواء لها ، وجبراً لمصابها فى زوجها ، وحفظاً لدينها ؛ فقل لى بربك : أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟ !

وتزوج بالسيدة أم سلمة : هند بنت أبى أمية . وكانت تحت ابن عمها عبد الله بن عبد الأسد . وكانا أسلما قديماً وهاجرا إلى الحبشة ثم قدما مكة وهاجرا إلى المدينة . فمات أبو سلمة من جرح أصابه فى غزوة أحد . فتزوجها صلى الله عليه وسلم .

ويروى عنها أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما من مسلم تصيبه مصيبة فيسترجع ويقول : اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلفنى خيراً منها إلا أخلفه الله خيراً منها » فلما مات أبو سلمة تذكرت قول الرسول عليه السلام . وقالت فى نفسها : ومن خير من أبى سلمة ؟ رجل نال الصحبة ، وشهد المشاهد مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ! ولكنها استرجعت وقالتها ؛ فأخلف الله تعالى لها رسوله عليه الصلاة والسلام فآواها ، وحفظها .

فترى من هذا أنه صلى الله عليه وسلم تزوجها ليعوضها خيراً من زوجها الذى فقدته ؛ وكانت كثيرة الأولاد فآواها وآوى أولادها ، وقام بشئونها ؛ جزاء لها على هجرتها ، وإيمانها ، وثباتها ووفائها ؛ فقل لى بربك : أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟ !

وتزوج بالسيدة أم حبيبة . رملة بنت أبى سفيان ؛ وكانت تحت عبيد الله بن جحش ، وقد هاجرا إلى الحبشة : الهجرة الثانية ، ثم تنصر زوجها ، ومات بالحبشة ، وثبتت هى على

إسلامها ، وأبت أن تتنصر معه ، وخالفته ، واختارت الإسلام عليه ؛ فأتم الله تعالى لها : الإسلام ، والهجرة ، والصحبة ، وأكمل لها الشرف بزواجها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويروى أن أباها — أبا سفيان — قدم المدينة فدخل عليها ؛ فلما ذهب ليجلس على الفراش طوته دونه ، فقال : يا بنية أرغبت بهذا الفراش عنى ، أم بى عنه ؟ فقالت . بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت امرؤ نجس . فقال : لقد أصابك بعدى شر . فقالت : بل خير !! وقد خطبها صلى الله تعالى عليه وسلم من ملك الحبشة ؛ حين سمع بانقطاعها ، وفقد نصرائها . فقل لى بربك : أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

وتزوج بالسيدة ميمونة بنت الحرث الهلالية بعد وفاة زوجها ، وسنها رضى الله عنها زهاء خمسين سنة ، وقد تزوجها إيواء لها ، وتألفاً لقومها ، وقد أسلم بسبب هذا الزواج كثير من قومها ، منهم — ابن أختها — سيف الإسلام خالد بن الوليد . فقل لى بربك : أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

وتزوج بالسيدة جويرية بنت الحرث ، وكانت تحت مسافع بن صفوان المصطلق ، وقد قتل كافراً يوم المريسيع ، وأخذت سبية ضمن سبايا وأسرى بنى المصطلق ، وكانت سيدة بنى المصطلق وبنت سيدهم ؛ فأعتقها صلى الله عليه وسلم وتزوجها ، فلما سمع المسلمون بذلك أعتقوا مافى أيديهم من سبى بنى المصطلق ، وقالوا : هم أصهار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ؛ فأسلم بسببها بنو المصطلق ، عن بكرة أبيهم وحسن إسلامهم .

فنرى من ذلك أنه لم يتزوجها سوى رغبة فى إسلام قومها . وقد أنقذها من الأسر ، وأعتقها من الرق ، وأعزها من الذل . فقل لى بربك : أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

وتزوج بالسيدة صفية بنت حيى بن أخطب : سيد بنى النضير؛ قتل أبوها مع بنى قريظة ، وكانت تحت إسلام بن مشكم القرظى ؛ ثم فارقها ، فتزوجها كنانة بن أبى الحقيق ؛ وقتل عنها يوم خيبر ، وأخذت رضى الله تعالى عنها فى السبى ؛ فخيرت بين العودة إلى قومها ، وزواجها بالرسول ؛ فاختارت الخيرة ! فأعتقها صلى الله تعالى عليه وسلم وتزوجها رغبة فى إسلام قومها « اليهود » وقد أسلم كثير منهم . فقل لى بربك : أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

ويتضح مما تقدم أن الرسول عليه السلام لم يتزوج إحداهن إلا لأسباب دينية ، ومقاصد أخروية ؛ لا تمت إلى الشهوة بسبب ، ولا تتصل إلى الميل للنساء بصلة !

هذا عدا أن هناك حكمة لهذا التعدد من أجل الحكم ؛ وهى نشر الأحكام الخاصة بالنساء ، والتى لا يستطيع تبليغها الرجال : كالطهارة ، والغسل ، والحيض ، والنفاس ، والولادة ، والرضاع ؛ إلى غير ذلك من الأحكام التى لايستطيع إفهامها للنساء — على وجهها الأكمل — سوى النساء .

ولا يمكن بحال أن تقوم بمهمة تبليغ الأحكام لسائر نساء المسلمين — على اختلاف طبقاتهم فى ذلك الحين — امرأة واحدة ، بل عدة نساء ، من عدة قبائل . وبذلك يتم ما أراده الله تعالى من إظهار نوره ، وبسط شرائعه !

وقد ثبت أنهن أذعن عنه صلى الله تعالى عليه وسلم : علماً ، وفضلا ، وفقهاً . ولو كان صلى الله عليه وسلم يريد بالتعدد ما يريده سائر الملوك والأمراء — من التمتع واللذة ليس غير — لانتخب الحسان الأبكار ، والكواعب الأتراب ، ولم يتجه صوب هؤلاء الثيبات المكتهلات . فهل بعد هذا لمبشر — غر سمج . عتل زنيم — أن يقول عنه صلى الله عليه وسلم : إنه شهوانى يميل إلى النساء ؟ ! فى حين أن فى دياناتهم ومعتقداتهم ما ننزه ألسنتنا عن ذكره ، وأقلامنا عن تدوينه ؛ فسبحان من هدانا لدين الحق ، دين النور ، دين الفطرة ، وأظهره على الدين كله ولو كره الكافرون !

وفضلا عن ذلك : فلم تكن علاقاته — عليه أفضل الصلاة وأتم السلام — بزوجاته كعلاقة أى زوج مهما دنا ، بأى زوجة مهما علت !

فقد عاشرهن السنين الطوال ؛ فلم تفلت من لسانه الكلمة النابية ؛ بل الكلمة الرقيقة ، ولم تبد على سماته النظرة القاسية ؛ بل النظرة الحانية !

وما من رجل — بالغ ما بلغ من المروءة والرقة وسعة الصدر — إلا واستحال رضاه إلى غضب فى ساعة ما ، وبدا منه التذمر والتضجر إزاء تصرف ما ، وبدرت منه بوادر الشر ، ونذر السوء حيال عمل ما !

ولكن الرسول ، الذى أوتى جماع الفضائل ، وبعث ليتمم مكارم الأخلاق !

الرسول : الذى أرسل من البشر ، ليعلى من أقدار البشر ، ويرفع من شأنهم ، ويسمو بنوعهم : لم يكن كذلك !

ولم يكن هذا منه — عليه الصلاة والسلام — جبناً أو ضعفاً ، بل كان كمالا وجلالا !

فإن الضعف الاختيارى : أقوى من سائر القوى ، وأكمل من سائر الكمالات ؛ وهو خير مقياس للعظمة الإنسانية فى أجل صورها ، وأرفع مراتبها !

فإن من يقهر نفسه باختياره ؛ ليترفق بضعيف ؛ لا طاقة له باحتمال القهر ، ولا غنى له عن طلب اللين والرفق : لهو الشجاع الباسل القوى !

بقى شىء واحد — وهو من الخطورة بمكان — وهو أن بعضهم يروى عن الطاهر المطهر صلى الله عليه وسلم أنه قال « حبب إلى من دنياكم : النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة » وقال أيضاً « أعطيت قوة أربعين فى البطش والجماع » وهذا كما ترى مرذول ممجوج ؛ لا يصح نسبته بحال لسيد النبيين ، وإمام المتقين ؛ ولو رويت هذه الأحاديث فى سائر الصحاح ، وأسندت فى كل المسانيد ؛ لما وسعنا إلا رفضها . والجزم ببطلانها ! يقول الله تعالى — فى معرض الذم والقدح — ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء ﴾ ونحن ننسب للرسول عليه السلام القول بحب النساء وأنه أعطى قوة أربعين فى إتيانهن . وهل بعد هذا نلوم المبشرين فى طعنهم على الرسول صلوات الله عليه وسلامه — بأنه شهوانى يميل إلى النساء — ونحن الذين نسلمهم بأيدينا الحجج ، ونقيم لهم بأنفسنا البراهين ؛ على صحة زعمهم ، وصدق إفكهم . بل وننسب للرسول ونفترى عليه مالم يقله ، وما هو مبرأ من أن يهجس به ؛ فضلا عن أن يفخر بذكره . ويقوله على ملأ من أصحابه ؛ الذين يرون فيه المثل الأعلى للأخلاق الفاضلة ، والخلال الكاملة !

الرسول الطاهر المطهر ، يجلس بين صحابته ويقول « إنى أحب النساء ، وإنى أعطيت قوة أربعين فى الجماع ! ! » يالها من فرية يضطرب لها القلب ؛ ويتصدع منها الحق ! فاحذروها

— أيها المنصف الحكيم — وأذع بطلانها بين من تعرف ؛ هداني الله وإياك لما فيه الرشاد والسداد !

وقد روى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم(١) ، وتلين له أشعاركم وأبشاركم(٢) ؛ وترون أنه منكم قريب(٣) ؛ فأنا أولاكم به . وإذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم ، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم ؛ وترونه بعيداً عنكم ؛ فأنا أبعدكم منه » .

فمن هذا يعلم أن ما تقدم من الأحاديث وأمثالها ؛ لا يجب الأخذ بها ، ولا التعويل عليها : لمخالفتها للكتاب والسنة ؛ بل وللآداب العامة أيضاً !

---

(١) تعرفه قلوبكم : أي تطمئن إليه ، ولا تنكر معناه ، ولا تستوحش من نسبته إلي .
(٢) الأبشار : جمع بشرة ؛ وهي ظاهر جلد الإنسان .
(٣) قريب : أي لأفهامكم وأذواقكم وآدابكم .

الطلاق

يقول الله تعالى ﴿ الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ وقد أراد قوم — غفر الله تعالى لهم — أن يقيدوا الطلاق ، ويجعلوه بيد الحاكم لا بيد الرجل ؛ وهم بهذه القالة يتركون الإسلام ؛ ذلك الدين الكريم السمح ، ويعودون بنا إلى المسيحية التى تلزم الرجل بإمساك زوجته : كارهاً لها ، مبغضاً لعشرتها ، مبتغياً هلاكها للخلاص منها !

ومن عجب أن الشرائع التى أخذت بنظام منع الطلاق ؛ تلاقى من ذلك ضيقاً وأى ضيق ؛ وعنتاً وأى عنت ؛ ولا يجد متبعو هذه الشرائع متنفساً لما هم فيه ؛ سوى الهم والكبت . فيظل الزوج يمسك زوجه العاهرة على هون ! وتظل الزوجة فى كنف زوجها الفاجر الباغى على أذى !

فكم من مآس تمس الأعراض والأنساب ، وكم من جرائم تهدم الأخلاق والمقدسات ، وكم من فساد يفشو ، وكرامات تهدر !

فقد يحصل بين الزوجين ما يسمونه فراقاً جسمانياً ؛ وهو أمر تقره الديانات المسيحية . وقد قصدت هذه الديانات بذلك : تأديب الزوجة بالهجران لأمد قصير . ولكنه قد يطول حتى ينهى حياة الزوجين .

وقد شرعت الديانة الإسلامية ذلك التأديب أيضاً : « واهجروهن فى المضاجع » وهذا الهجر يعتبر أوسط التأديب — بين الوعظ والضرب — ولكن الهجر فى الإسلام : لما كان يستتبعه الضرب ؛ فالطلاق ، فالتزوج بأخرى : كان تأديباً نافعاً ناجعاً . أما فى الديانات المسيحية ؛ فلا يعقبه شىء ما ؛ اللهم إلا أن يضرب الزوج رأسه بالحائط ، أو يشرب ماء المحيط إن شاء ! فلا هو بمستطيع تسريحها والزواج من غيرها ، ولا هى بمستطيعة التخلص منه ، والتزوج من غيره : فيلح عليهما داعى الجسد ؛ الذى أودعه الله تعالى فى كليهما — بل فى كل كائن حى — وحينئذ يدأب الزوجان على التحلل من ذلك الضيق بأبسط الحلول الحيوانية : فليتخذ الزوج

خليلة مكان الحليلة ، ولتتخذ الزوجة خليلا مكان الحليل ! وينصبغ هذا الإجراء منهما بصبغة رسمية ؛ هى بالحلال والمباح أشبه : فيصطحب الزوج عشيقته فى المجتمعات والمنتديات ، والحفلات الرسمية ، والغير الرسمية ، وتصطحب الزوجة عشيقها أيضاً فى مثل هذه الحفلات . وقد يلتقى الاثنان — أو الغريمان — فلا يقابل أحدهما الآخر إلا بالتحية والابتسام ؛ وقد تنتج من هذه العلائق الآثمة ذرية وأبناء ؛ فلا يضيق هذا المجتمع الراقى بهم ؛ بل تعترف بها قوانين القوم ، بغير ما تثريب أو لوم !

وهكذا تنقلب العلائق التى ربطها الله تعالى برباط محكم وثيق من الود والرحمة والروحانيات ؛ إلى علائق آثمة تعافها أحقر الحيوانات ! وتصبح هذه العلاقات — التى لا تقوم على أى أساس من الدين ، أو المروأة ، أو الآداب العامة — وقد أقرها المجتمع ؛ لأنه يرى فيها أنها نتيجة حتمية لعلاج حالة اجتماعية !

هذا وقد سجلت المحاكم الأجنبية فضائح يندى لها الجبين خجلا ، وتتأذى منها الأسماع والأبصار ، وهى تجل عن الحصر :

فمن ذلك : أن رفع أحد الأزواج قضية طلاق ضد زوجته التى خانته مع زوجها السابق « مطلقها » خيانة زوجية تستوجب فى شريعتنا الحنيفية السمحة : الرجم بصغار الأحجار ، حتى تنقطع الأعمار ! وقد اعترفت الزوجة أمام القضاء بتلك الخيانة ؛ غير أن محاميها دفع التهمة عنها بأن الكنيسة الإنجيليكية لا تعترف بالطلاق الأول ، وبالتالى فإنها لا تعترف بزواجها الحالى ؛ وبذلك تكون الجريمة قد وقعت فى ظل سماحة الدين الذى يحرم زواجها من زوجها الحالى ؛ وبذلك يكون المجرم هو الزوج — المجنى عليه — والبرىء هو الجانى — بل الزانى — فلم يسع المحكمة إلا الحكم بالبراءة ؛ ولعل الزانى الآن قد رفع دعوى مدنية ضد الزوج يطالبه فيها بتعويض عما ناله من أذى فى سمعته الأدبية ، ومكانته الاجتماعية (١) !

وهكذا ساءت أخلاق الأمم الغير المسلمة ، وانهارت مقوماتها ، وامحت مثلها العليا ، وانطمست فضائلها ! ولم يجدهم علمهم الضخم ، وأدبهم الجم ، ومنظرهم الفخم ؛ ولم ينفعهم

---

(١) نشر هذا الخبر بجريدة الجمهورية فى ١٩ فبراير سنة ١٩٥٧ « العدد ١١٥٦ » .

ما هم فيه من عيش رغيد ونعيم أكيد ! بل صاروا بهذه الأخلاق كالرمم البالية ، والذئاب العـاوية ! ولم يغنهم سكنى الدور والقصور ، ولبس الملابس الزاهية ، وركوب المراكب الفارهة(١) ! وأصبح الأعرابي العاري الجسم ، الحافي القدم ، وليد الصحراء ، قاطن الكوخ ؛ أصبح يزهو بأخلاقه ، ويتيه بغيرته ، ويستمسك بحميته ، ويعجب بزوجته ، التي حفظته في حضوره وغيبته ! وهو إن أحبها : أمسكها وأكرمها ، وإن كرهها : طلقها ولم يظلمها !

ونظام الطلاق في الإسلام : هو الواحة التي يستظل بها كل من لفحته سموم الشحناء ، وأحرقه يحموم البغضاء ! فما لنا به وبتقييده ؟ وكيف يمسك إنسان إنسانة وهو لها كاره ، ولعيشها قال ؟ ولم لا يسرحها فتتزوج بمن يحبها وتحبه ، ويحرص على راحتها وتحرص على راحته ؟ ألم يقل خالق الإنسان للإنسان ﴿ الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾

والطلاق ضرورة اجتماعية ، ينادي بها كل من له قلب يفقه به ! فتعالى الله الذي جعل لعباده من كل ضيق فرجا ، ومن كل هم مخرجا ؛ وأعد لخلقه — وهو أدرى بهم من أنفسهم — ما يصلح دنياهم وآخرتهم !

وإلا فخبروني بربكم : كيف يكون الحال والمآل ؛ إذا قال الحاكم للزوج : أمسك عليك زوجك . وقال الزوج : لا ، لا . هي طالق ، هي طالق ، هي طالق ؛ فهل تبين منه كما يقول الله تعالى ﴿ فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره ﴾ أم يمسكها على هون رغماً عنه كما أمره الحاكم ؟

وقد قال تعالى — بعد ذكر الطلاق — « وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون . . . ولا تتخذوا آيات الله هزوا » .

وقد شرع الله تعالى الطلاق لحكمة عالية ، وأغراض سامية ، ومقاصد شريفة : لأنه متنفس الزوجين ؛ إذا ساءت العشرة ، ودامت المضارة ، وتكدر صفو الحياة ، وانقطعت الألفة ، ورثت حبال المودة ، ودب البغض في قلب كليهما ، واشتد الجدال ، واحتدم الخصام ، وهبت أعاصير الشقاق ، وطلب الوفاق فلا وفاق !

---

(١) الفاره من الدواب : الحسن المنظر ، الجيد السير .

وما المخلص للزوجين : إذا كانت طباعهما متنافرة ، وميولهما متباينة ، أو كان أحدهما فاسد الخلق ، لئيم الطبع ، سيء العشرة ، بذيء اللسان ؟

أليس الطلاق هو الدواء الناجع لتلك الآلام ، الشافى من هذه الأسقام ؟

ولولاه لعم الفساد ، واختل الأمن ، واغتيلت الأرواح ، وفشا الانتحار ، وهجرت الأوطان ، وذاع الفسق والفجور !

وقد جاء عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » .

وجاء عن عمر رضى الله تعالى عنه ؛ أنه قال لرجل طلق امرأته : لم طلقتها ؟ قال : لا أحبها . فقال : أكل البيوت بنيت على الحب ؟ أين الرعاية والذمم ؟ !

وقد أوجب الإسلام على الزوج ملاينة زوجته ، وملاطفتها ، وموادعتها ، ومعاشرتها بالمعروف ، وأخذها بالحسنى ؛ حتى تطيب نفسها ، ويطمئن قلبها !

كما دعاه أيضاً إلى الصبر على ما يكره منها ؛ وضمن له الخير الكثير ، والثواب العظيم . قال تعالى : « فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » .

« فمن اضطر بعد كل هذا إلى ولوج باب الطلاق : فليفعل غير آثم ، ولا باغ ؛ وليتبع حدود الله تعالى « تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » .

إن أوامر هذا الدين لا تقبل تأويلا ولا تحسينا ؛ فقد أكمل الله تعالى لنا ديننا ، وأتم نعمته علينا ، ورضى لنا الإسلام ديناً ، فقال ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ فإما الطلاق كما عرفه الله تعالى فى دينه الذى ارتضى لنا ونظمه رسوله عليه الصلاة والسلام ، وإما نصرانية صريحة يأباها الدين ولا يقرها المسلمون ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ ﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾

تحديد النسل

يقول الله تعالى ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار ﴾ فهو وحده — جل شأنه — الذى يتولى زيادة المواليد ونقصانها ، وحاجة الكون — الذى خلقه — لها ، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ، واختياره وإرادته ! فكم من أنثى لا تلد : مع توافر الأسباب ، والرغبة فى الإنجاب . وكم من أخرى تلد فوق ماولدت ، وتنجب فوق ما أنجبت . وقد تكون الأولى فى سعة ، والأخرى فى ضعة ؛ ولكنه تقدير الحكيم العليم : الذى يعلم ما لا نعلم ، ويرى ما لا نرى ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾ .

وقال جل شأنه : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ﴾ وقد كانوا فى الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الفقر ؛ وهو كفر لا يعدله كفر . وينطوى تحت جرم قتل الأولاد : جرم هو منه أقبح وأشنع ، وهو جرم الكفر بالله وعدم الثقة بوعده .

وقد قام فى هذا الزمان أناس ينادون بتحديد النسل بحجة عدم كفاية المواد الغذائية والمواد الأولية لحاجة سكان الكرة الأرضية ؛ الذين هم فى ازدياد مستمر .

والقول بما يقولونه هو إحدى الكبر ؛ إذ كيف نقحم أنفسنا فى أمور ليس لنا عليها سلطان ، وما لنا بها طاقة ، ولا يحيط بها علم . أليس الله معنا ، يسمعنا ويرانا ، ويعلم سرنا ونجوانا ، ومتقلبنا ومسرانا ؟ أليس هو الذى يرزق الطير فى وكناتها ، والوحش فى فلواتها ؛ فتغدو خماصا وتروح بطانا ؟ !

أليس الله تعالى هو القائل ﴿ وبارك فيها وقدر أقواتها ﴾ .

وهذه النزعة : إن صح أن تفشو فى البلاد الغربية — التى تميزت بالإلحاد والمادية — فلا يجوز بحال أن تفشو وأن تشيع فى البلاد الإسلامية — التى تميزت بالإيمان والروحية — وهل يجوز أن نؤمن بأن الله هو « الخلاق » ، ولا نؤمن بأنه تعالى هو « الرزاق » .

ويقول جل شأنه فى معرض الامتنان والإحسان : ﴿واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم﴾ فبان لنا من ذلك : أن القلة ذلة ، والكثرة عزة !

فكيف نستبدل العزة بالذلة ، والكثرة بالقلة ؟ !

ويقول الله تعالى ﴿ وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات ﴾ فنقول : دعونا من الحفدة والبنين ، فلسنا لهم بمطيقين . ويقول أيضاً ﴿ وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين ﴾ فنقول : وأين هذه المعايش وأين هذا الرزق ؟

قال الله تعالى ﴿ الله الذى خلقكم ثم رزقكم ﴾ فأتبع الخلق بالرزق . وقال أيضاً ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ... نحن نرزقكم وإياهم ... كلوا واشربوا من رزق الله ... إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ فإذا ما استمعنا إلى هذه الآيات البينات ؛ قلنا بلسان الحال والمقال : أين الرزق ، وأين الرزاق ؟ لقد كسد الحال ، وكثر العيال !

فإذا ما استمع مؤمن إلى هذا الهراء الذى هو أشبه بالكفر ، بل هو والكفر سواء ! قال : ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ .

والقول الفصل فى هذا : ما أشار إليه الذكر الحكيم بقوله ﴿ أفرأيتم ما تمنون ؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ وأعقب ذلك بقوله ﴿ أفرأيتم ما تحرثون ؟ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾ وأعقبه أيضاً بقوله ﴿ أفرأيتم الماء الذى تشربون ؟ أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ﴾ .

كل هذا يقوله الخالق الرازق ، الحكيم العليم ؛ فما يزيدنا إلا كفراً وعناداً : من أين نرزق ؟ من أين نأكل ؟ من أين نطعم أبناءنا وحفدتنا ؟ وهذا نزغ من الشيطان ؛ نعوذ بالله تعالى منه ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ﴾ .

لقد تكفل الله بأرزاقنا وأبنائنا وحفدتنا ودوابنا ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ﴾ .

وهل يملك الإنسان رزق نفسه ــ إذا حدد النسل ، أو منع النسل منعاً باتاً ؟ ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ .

وماذا يكون الحال ونحن فى عهد القنابل الذرية والهيدروجينية التى تطيح إحداها بمئات الألوف من البشر ؟ بل ويزعمون أنها ستنهى العالم !

ماذا يكون حال الأمم التى حرمت التعدد ، وحددت النسل ؟

وهاهى الأمم التى اكتوت بنار الحرب تشكو كثرة النساء ، وقلة الرجال والعيال .

﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ... إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ .

وقال تعالى ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه فى قرار مكين ، إلى قدر معلوم ، فقدرنا فنعم القادرون ، ويل يومئذ للمكذبين ﴾ .

وقد جاء عن رسول الإسلام ؛ عليه أفضل الصلاة وأتم السلام ؛ حين سئل عن العزل : « إنه الوأد الخفى » .

وحين سأله بعض الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ؛ وقد عزلوا مع بعض السبايا : غضب غضباً شديداً ؛ وقال : « وإنكم لتفعلون . وإنكم لتفعلون ، وإنكم لتفعلون ؟ ! ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة : إلا هى كائنة » وفى رواية « لا تفعلوا فإنما هو القدر » (١) .

فيأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم ، وتكفل بأرزاقكم ، ولا تقحموا أنفسكم فيما ليس لكم به علم ، وادعوا الله تعالى ألا يكل أحدكم إلى نفسه فيهلك ، واذكروه كما هداكم ورزقكم من الطيبات ، وفضلكم على العالمين . ولا تفيضوا فى هذا الحديث ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم ، إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ﴾ .

---

(١) رواه مسلم صفحة ١٠ ج ١٠ طبع المطبعة المصرية .

التبرج والسفور

يقول الله تعالى ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين(١) عليهن من جلابيبهن(٢) ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيما (٣) ﴾

وهو أمر صريح لسائر نساء المؤمنين وبناتهم بإرخاء الجلباب ليستر سائر الجسم حتى لا تعرف المرأة من هى ، وما شكلها ، وما هيئتها ؟ وليفرق ذلك الستر بينها وبين الإماء ، وليبتعد عن إذايتها المرتاب ، ومن فى قلبه مرض .

والمراد أيضاً فى هذه الآية : إدناء الجلباب والخمار ؛ وهو من باب ذكر البعض وإرادة الكل ؛ وإلا فالجلباب بغير خمار لا يمنع من التعرف بالمرأة ؛ إذ أن وجهها ينم عليها . يؤيد هذا المعنى قوله عز من قائل ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن(٤) ﴾ .

ويقول الله تعالى أيضاً ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم(٥) ﴾ وكيف يتوفر غض البصر ؛ وقد انتشرت النساء فى الطرقات والمنتديات ؛ كاسيات عاريات ؛ لا يحجبهن عن الأنظار سوى غلالة من هواء ؛ تزيد فى فتنتهن ، والإغراء بهن . وكما أن تحريم الخمر لا يبيح صنعها ، فكذلك تحريم النظر لا يجيز الحث عليه ، والتشويق إليه . وكيف يغض البصر غاض وقد امتلأت الطرق والحوانيت بالكاشفات عن النحور والثدى والصدور ؟ اللهم إلا إن أغمض عينيه ، وأسلم نفسه وروحه للمقادير ؛ فتتاقفه الأحداث ، ويحيط به الموت وأسبابه من كل جانب . وهذا أمر يخرج عن حد التكليف المعقول المقبول ؛ ﴿ ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ .

---

(١) « يدنين » أى يرخين . يقال : أدنيت الستر ؛ إذا أرخيته .
(٢) الجلباب : ثوب يستر جميع البدن . وقيل : هو القناع .
(٣) آية ٥٩ من سورة الأحزاب .
(٤) آية ٣١ من سورة النور . و « الخمار » غطاء الرأس . و « الجيب » فتحة الثوب مما يلى العنق .
(٥) آية ٣٠ من سورة النور .

وإثم ذلك لايقع على هؤلاء السافرات المتبرجات وحدهن ؛ وإنما إثمه واقع على أشباه الرجال الذين يكفلونهن ، ويدبرون هذه الفتنة وهذا الفجور .

وليس معنى هذا أنا نبيح للرجال النظر للأجنبيات ، ما دمن سافرات ؛ بل إن غض البصر من ألزم اللوازم ، وأفرض الفرائض ؛ بل هو فى مقدمة الخلال الكاملة ، والأخلاق الفاضلة ؛ وكيف يسلم الإنسان الكامل نفسه للشيطان ، ويدع بصره يرديه فى العصيان ؛ وما أحسن قول الشاعر :

لواحظنا تجنى ولا علم عندها وأنفسنا مأخوذة بالجرائر (١)
ولم أر أغبى من نفوس عفائف تصدق أخبار العيون الفواجر
ومن كانت الأجفان حراس قلبه أذن على أحشائه بالفواقر (٢)

هذا وقد حد الله تعالى حدوداً يجب على المؤمنات ألا يتجاوزنها ؛ فقال عز وجل ﴿ ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن ، أو آبائهن ، أو آباء بعولتهن ، أو أبنائهن ، أو أبناء بعولتهن ، أو إخوانهن ، أو بنى إخوانهن ، أو بنى أخواتهن ، أونسائهن أو ماملكت أيمانهن ، أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال ، أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء(٣) ﴾ وهذه الأصناف التى أبيح للمرأة عدم إخفاء زينتها عليهم لا يجب تجاوزهم إلى غيرهم ؛ فكيف يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تتعدى حدوده ، وتنتهك محارمه ، وتبدى زينتها وما وراء زينتها لرجال حرم الله تعالى عليهم النظر إليها ! ؟

هذا وقد أخذ كثير من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم فى تأويل هذه الآيات مأخذ الشدة — لعلمهم أن النساء يتغالين فيما يسمح لهن به ، ويتجاوزن الحدود المرسومة لهن —

---

(١) الجرائر : جمع جريرة ؛ وهى الذنب والجناية .

(٢) الفواقر : جمع فاقرة ؛ وهى الداهية العظيمة قال تعالى « ووجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة » أى تأكدت بأن تنزل بها داهية .

(٣) آية ٣١ من سورة النور .

فقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : تستتر المرأة حتى لا يظهر منها سوى عين واحدة تبصر بها . وقال الحسن رضى الله تعالى عنه : تغطى نصف وجهها .

ودخل نسوة على أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها ؛ وعليهن ثياب رقاق(١) فقالت عائشة « إن كنتن مؤمنات فليس هذا بلباس المؤمنات ، وإن كنتن غير مؤمنات فتمتعن به » .

وقال صلى الله تعالى عليه وسلم فى وصف ما نراه الآن : « نساء كاسيات عاريات (٢) ، مائلات مميلات(٣) ، رءوسهن مثل أسنمة البخت(٤) ؛ لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها » .

وهل بعد نفى الإيمان ، والحرمان من الجنان ؛ يقوم إنسان فيدعو لهذا السفور ، وهذا الفجور ! ؟

وقد قام أناس — غفر الله تعالى لهم — بالدعوة إلى السفور والحض عليه ، وذم الحجاب الذى مدحه الله تعالى ورسوله وأمرا به ؛ وقد قال قائلهم :

أخر المسلمين عن أمم الأر ض حجاب تشقى به المسلمات(٥)

وقد جعلت هذا البيت مطلعاً لقصيدة قلتها من عشرات السنين — قبل أن يستفحل الأمر ، ويجل الخطب — وقد نسيت أكثرها ؛ ولا بأس من تدوين ما تذكرته منها . عسى أن يتعظ به متعظ ، أو يستفيد به مستفيد :

أخر المسلمين عن أمم الأر ض حجاب تشقى به المسلمات(٦)

---

(١) أين تلك الثياب الرقاق مما يكتسيه نساء اليوم من ثياب لا تحجب ماتحتها ؛ حتى أن المرأة لتبدو كأنها عريانة ؛ لا يحجبها حاجب ، ولا يسترها ساتر .

(٢) أى مكسوات اسماً ، وعرايا فعلا . أو المقصود : عرايا من الإيمان .

(٣) أى يتمايلن فى مشيتهن ، ويملن إليهن من فى قلبه مرض من الرجال .

(٤) أسنمة : جمع سنام . والبخت : نوع من الإبل . (٥) من قول شاعر العراق جميل صدقى الزهاوى.

(٦) صدرت بهذا البيت قصيدتى لأرد على هذا الرأى الفاسد الذى يتعارض مع صريح القرآن الكريم؛ فما أخر المسلمين سوى السفور ، الذى أفسد الدين وسود الصدور . أدركنا الله تعالى بلطفه !

بئس ما يدعى فلاسفة العصـــر من ان السفور فيه الحياة
وهو حق إذ أن أسلافنا الأعـــراب من فرط من يحبون ماتوا(١)
يا خليلى حدث عن الشرق قدماً حين كانت تعظم المعجزات
حين كان القرآن يرجى ويخشى والقوانين آيه البينـات
حين كان الحديث يتلى ولا ير ويه إلا ذوو العقول الثقات

* * *

إننا فى الزمان(٢) نلفى(٣) أناساً فى التوضى علومهم قاصرات(٤)
وهمو بعـــد يدعون علوماً أنـكرتها عصورنا الخاليات(٥)
ليت شعرى ماذا يريدون منا وصنوف الأذى بنا محدقات

* * *

بنت مصر هاتى سفورك واغشى كل ناد ولتمل منك الجهات(٦)
عرفى نفسك الغـداة وطوفى لا تفتك الأسواق والحانات(٧)

---

(١) تهكم بهذا الرأى الفاسد ، والقول المذموم ؛ وإشارة إلى من مات من أعفاء العرب حزناً وجوى على عدم نيل من أحب . هذا فى حين أن السفور الممقوت قد خلط الحابل بالنابل ، وجعل الحبيب متمكناً من حبيبته ، والعاشق مالكا لعشيقته ؛ فاتقشع بذلك الأسى والجوى ، وحل مكانهما القرب والنجوى ، فعم بذلك الشر والبلوى ، واستوجبوا الحرمان والنيران ، وغضب الرحمن الديان ؛ فلا حول ولا قوة إلابالله !

(٢) فى الزمان : أى فى هذا الزمان . (٣) نلفى : نجد .

(٤) أى لا يتقنون الوضوء ؛ وهو أبسط الأشياء فى الشريعة والفقه ، أو لا يقومون به أصلا لتركهم الصلاة ، وهذا شأن الـكثيرين ممن دعوا الى السفور .

(٥) وذلك عمـا يزعمونه من أن السفور لا يتنافى مع الدين ، على ما فيه من تبرج وزينة يأباها الدين القويم ، والخلق الـكريم !

(٦) هو أمر قصد به الاستهزاء والتهكم .

(٧) وقد تغالت النساء فى زماننا هذا حتى أصبحن لا يتورعن من غشيان الأسواق والحانات ، بل والمراقص أيضاً بغير وازع من دين ، أو رادع من خلق !

ثم أمى مجالس القوم وادعيـــهم إلى حيث لا تمـل الدعاة
علنا بالسفور نبنى حصوناً شامخات بهـا ترد العــداة
وعسانا نرى البرايا سجـــوداً لابن مصر وقد عداه السبات(١)
ولعمرى لقد بكى الدين حزناً حين قال الخطيب : ياسيدات(٢)

وحقاً إن الدين ليبكى حزناً حين تختلط الفتيات بالفتيان ، ولا تعرف الحرائر من القيان(٣) ، وتكشف المرأة — للأجانب عنها والذين ليسوا بمحرم لها — عن جسمها ومفاتنها بغير خجل ولا حياء ولا مروءة . فلينظر ذلك وليعتبر به من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

هذا وقد بلغت حرية كثير من الغربيين شأواً بعيداً ، متحررين من سائرقيود الأخلاق والفضيلة ، ضاربين بالكرامات والأعراض عرض الحائط ؛ غاضين البصر عن كل ما يحد من الملذات ، أو يضيق أفق الإباحية المطلقة ، والتمتع الجنسى الخالص من القيود .

فقد ضبط أحد الأزواج — فى منزل الزوجية — زوجته عارية كيوم ولدتها أمها ، بصحبة رجل أجنبي عنها عرياناً أيضاً كيوم ولدته أمه : فرفع أمره إلى القضاء طالباً الطلاق من زوجته البغى التى استهانت بكرامته وكرامة منزل الزوجية المقدس : غير أن القضاء الإنجليزى فى إحدى محاكم لندن لم يرقه تصرف ذلك الزوج الرجعى الذى لا يتمشى مع التقدم الغربى والرقى الاجتماعى ؛ فقضى برفض دعواه : مبرراً هذه الفعلة بأن الزوج يجب عليه أن يقدر الظروف والتقاليد(٤) !

وقد ضبط أحد الشبان الهنود — وقت إقامته بباريس — رجلا يجلس مع امرأة

---

(١) عداه السبات : تركه النوم والخمول .

(٢) أى عند ما غشيت النساء المحافل والمنتديات ، وقال الخطباء : سيداتى سادتى .

(٣) القيان : جمع قينة ، وهى الأمة البيضاء . وقد غلب على المغنيات والراقصات المتبذلات .

(٢) هذا الخبر منشور بجريدة أخبار اليوم ص ٢ عدد ٦٠٨ الصادر فى ٣٠ يونية سنة ١٩٥٦ .

فى حالة مريبة واضحة الفجور فى الطريق العام ؛ فلم يجد بدأ من الاستعانة بجندى البوليس ؛ الذى قبض على الشاب الهندى بتهمة الإخلال بالحرية الشخصية !

فرحى مرحى لهذه الحريات ؛ التى تقوم على أشلاء الفضيلة !

وهكذا كلما ازددنا تنكراً لتعاليم الدين الإسلامى الحنيف ؛ ازددنا بعداً عن الأخلاق والمروءة والكرامة والعفة ؛ بل خرجنا من عداد بنى الإنسان ، إلى عداد الحيوان . وقد نرى فى بنى الإنسان من يأتى عملا ينزه الحيوان نفسه عن إتيانه ! فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

التعطيل

لقد فشا بين الأمم المتقدمة مذهب التعطيل(١) ، وأخذه عنهم بعض الضالين من المتأخرين. وكل هؤلاء مقفرة عقولهم ، معطلة قلوبهم : ﴿ وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾(٢) فرد الله تعالى على زعمهم هذا بقوله عز من قائل ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على ربهم ﴾ للحساب يوم القيامة ﴿ قال أليس هذا ﴾ البعث ﴿ بالحق ﴾ كما أخبرتكم على لسان رسلى ؛ فكذبتموهم وآذيتموهم وقتلتموهم ﴿ قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾(٣) بذلك اليوم ﴿ قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ﴾(٤) أى فى الدنيا بعدم الإيمان بالساعة .

قال تعالى ﴿ قل الله يحييكم ﴾ بالخلق ابتداء ﴿ ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة ﴾ للحساب والجزاء ﴿ لا ريب فيه ﴾ أى لا شك فى مجىء ذلك اليوم الموعود ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾(٥) .

وهل يجوز عقلا وجود مصنوع بغير صانع ، ومخلوق بغير خالق ؟ أم هل تجوز نسبة خلق هذا العالم البديع ، وهذا الإنسان الناطق المبصر السميع ، وهذه الشموس المنيرة ، والكواكب المضيئة ، والسماوات المرفوعة ، والأرض المبسوطة ، وتلكم الأزهار

---

(١) التعطيل لغة : التفريغ والإخلاء وترك الشىء ضياعاً . وإبل معطلة : لا راعى لها . وتعطل : بقى بلا عمل . وتعطلت المرأة : إذا لم يكن عليها حلى، ولم تلبس الزينة ، وخلا جيدها من القلائد . والمعطل : الموات من الأرض . وثغر معطل : إذا ترك بلا حام يحميه . وبئر معطلة : لا يستقى منها ولا ينتفع بمائها . ومن أنكر البعث : فقد قال بالتعطيل ، لأنه ترك الكون ضياعاً وهملا ، لا راعى له ، ولا مدبر لأمره . وحاشا أن يكون كذلك !

(٢) آية ٢٩ من سورة الأنعام . (٣) آية ٣٠ من سورة الأنعام .

(٤) آية ٣١ من سورة الأنعام . (٥) آية ٢٦ من سورة الجاثية .

الناضرة ، والمناظر الساحرة ، والطيور السابحة فى الهواء ، والأسماك الجارية فى الماء ، والفاكهة التى تسر الآكل والناظر ، وسائر المطعومات ، والمشروبات ، والمشمومات ؛ واختلاف كل هؤلاء منظراً ومخبراً ؛ هل يجوز خلق جميعها بلاخالق يخلقها ، أومدبر يدبرها ؟ وهل هى الطبيعة كما يقولون ؟ وهل قام هذا الكون باطلا ، وهذه المخلوقات عبثاً ؛ فلا بعث ولا حساب ، ولا نعيم ولا عقاب ؟ لقد ارتكبوا إثماً وفجوراً ، وقالوا بهتاناً وزورا !

هذا وقد جهر بهذا القول السقيم ، والرأى الفاسد العقيم : كثير ممن طبع الله تعالى على قلوبهم فهم لا يفقهون ! فمن ذلك ما قاله شاعر العراق جميل صدقى الزهاوى ؛ من قصيدة طويلة (١) :

وسائلة : هل بعد أن يعبث البلى ... بأجسادنا نحيا طويلا ونرزق ؟ (٢)
فقلت مجيباً : إننى لست واثقاً ... بغير الذى حسى له يتحقق (٣)
وهيهات لا ترجى حياة لميت ... إليه البلى فى قبره يتطرق (٤)
تقولين : يفنى الجسم والروح خالد ... فهل بخلود الروح عندك موثق (٥)

إلى أن قال :

وكم لى من رأى إذا ما بسطته ... يقولون : زنديق من الدين يمرق (٦)

---

(١) نشرت فى ٢٢ سبتمبر من سنة ١٩٢٤ بجريدة السياسة اليومية .

(٢) هو إنكار صريح للبعث والنشور .

(٣) لا يؤمن بعقله ولبه : كإيمان الإنسان ، بل يؤمن بلمسه وحسه : كإيمان الحيوان ؛ وما أشبهه بمن قالوا لرسولهم « أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . . . أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه » .

(٤) ومن قبله قال الكافرون « أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون . أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون . أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد » لعنهم الله تعالى وأشياعهم إلى يوم القيامة .

(٥) أنكر عدو الله وعدو نفسه خلود الروح ؛ وقد آمن بخلودها سائر الناس : مسلمهم وكافرهم ؛ وأصبحت من الحقائق العلمية الملموسة .

(٦) نعم زنديق وأى زنديق ، ومارق من الدين وأى مارق !

إذا جئت كذباً : فالضمير يلومنى وإن قلت حقاً : فالمخاطب يحنق
لقد كره الجهال كل حقيقة(١) على أنها حسناء بالحب تخلق
خض اللج من بحر الطبيعة سابراً (٢) ولا تخش عند الخوض أنك تغرق

وقد نشرت هذه القصيدة فى مصر بالجرائد السيارة ؛ فلم يتصد أحد من الكتاب أو العلماء للرد على هذا الكفر الصريح الفاضح . وقد رددت عليه بقصيدة من بحر قصيدته وقافيتها ؛ راجياً بها وجه الله تعالى ، ذائداً عن حياض الدين ، مدافعاً عن الكتاب المستبين !

والزهاوى هذا من كبار الملاحدة — بل ليس فى الملاحدة من يدانيه فى الإلحاد — وله شعر كثير ؛ أنكر فيه صراحة وجود الإله جل شأنه .

فمن ذلك قوله :

لما جهلت من الحقيقة أمرها وأقمت نفسك فى مقام معلل
أثبت رباً تبتغى حلا به للمشكلات ؛ فكان أكبر مشكل

وقوله أيضاً :

قالوا بأن الإله حى له على عرشه ثبوت
فقلت : ما الله غير وهم أثبته الوصف والنعوت
إن حي العلم فى أناس فالله من ذاته يموت

هذا وقد هلك الزهاوى منذ بضع سنين ؛ ورأى الآن جزاءه الحق فى قبره ؛ وعلم أن معرفته تعالى لم تكن من المشكلات ؛ بل آمن به كل الحيوانات ؛ وأنه جل شأنه : حقيقة لاوهم فيها ؛ إلا على من انطمست بصيرته ، واسودت سريرته ؛ حمانا الله تعالى من الجهل بحقيقته ،

---

(١) سولت له نفسه ، وأوحى إليه شيطانه ؛ أن ما يقوله من إنكار البعث : هو الحقيقة المجردة عن الهوى ، وأن من لم يوافقه على رأيه الفاسد : من الجهال الذين يكرهون الحقائق . اللهم اجعلنا من الجاهلين بهذه الحقائق التى يقول بها ذلك المارق !

(٢) السبر : التأمل والبحث ، وسبر الجرح : تعرف عمقه .

بعد عرفانه حق معرفته ، وحفظنا من الزيغ بعد الإيمان ، ووقانا شر النفس ومكائد الشيطان !

وهاهي قصيدتي رداً على قصيدته في إنكار البعث :

حول إنكار البعث(١)

أو قصيدة الزهاوي

﴿ قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة
لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾
قرآن كريم

إذا طفق(٢) التبريح(٣) بالقلب يعلق   فلا عجب للطرف إن كان يأرق
وقائلة : مالى أرى الهم والأسى   حليفيك هل أمسيت للزهر(٤) تعشق ؟
أضن بما ترجو خليل ؟ فقلت لا   ولكنني من غير ذلك أفرق(٥)
أخاف الذى فوق السموات عرشه   إذا خضت بحر الإثم فالإثم يوبق(٦)
فقالت : تعشق كل هيفاء غادة   ولا يتجنبك الغزال المقرطق(٧)
وحافظ على ذكر الملاح ورققن   نسيبك فيمن للنسيب يرقق
وغازل ونادم واشربن واطربن ولا   تضيق فماذا نال منها المضيق ؟

(١) نشرت فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٢٤ بالسياسة اليومية بعد نشر قصيدة الزهاوى بثمانية أيام .
(٢) طفق يفعل كذا : أى ظل يفعله .
(٣) التبريح : شدة الشوق وتوهجه .
(٤) الزهر : الأنجم المضيئة ، والمراد بها هنا : الغيد الحسان اللاتى يشبهن الأنجم الزهر فى الجمال .
(٥) أفرق : أخاف .
(٦) يوبق : يهلك ؛ لأنه يورد النار .
(٧) القرطق : ملبوس يشبه القباء ، وهو من لبس الأعاجم .

فقلت لها : مثل العروس ينام فى حفيرته دهراً إذا النفس تزهق(١)
ويحشر فى حزب الأمانة والنهى وأكرم أهل الأرض يوم تشقق(٢)
ويسكن جنات النعيم مخلداً على حين يصلى النار من كان يفسق
فقالت : أحق أننا بعد موتنا وبعد البلى نحيا طويلا ونرزق(٣)
فقلت لها : إن كنت أنكرت هذه فثلك من دين المهيمن يمرق
لأنك أنكرت الإله ورسله وكتباً أتت بالحشر والنشر تنطق(٤)
فقالت : لنا عقل ودينكم لكم وللعقل بين الرشد والغى يفرق
فقلت لها : ماذا أرتكم عقولكم ؟ فقالت : وجودى بالطبيعة ملصق
بها كان ماقد كان هل أنت منصف ؟ فقلت لها : ما قال هذا موفق
وليس ضميرى يطمئن لباطل ولا أنا من ذكر الحقيقة أحنق(٥)
لقد رد ذا نوح وهود وصالح وموسى وعيسى والنبى المصدق(٦)
وإن رمت منهاج العقول فإننى به عارف والباب ما هو مغلق
أتختلف الأشيا بغير إرادة تخصص كلا بالذى هو أليق(٧)
أياطبعيين اشرحوا لى طبيعة بها كل جسم عندكم يتحقق
فإن تك عين الجسم كان مقدماً على نفسه إذ فاعل الشىء يسبق

---

(١) ورد فى الحديث الشريف أن المؤمن ينام فى قبره مثل العروس .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى « يوم تشقق الأرض عنهم سراعا » .

(٣) هذا هو السؤال الاستنكارى الذى سأله الزهاوى فى قصيدته النجسة .

(٤) ورد ذكر القيامة والبعث فى سائر الكتب السماوية .

(٥) وذلك رداً على قوله « ولمن قلت حقا فالمخاطب يحنق » .

(٦) ورد فى القرآن الكريم ذكر القيامة والبعث والحساب ؛ على لسان هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

(٧) اختلاف الطعوم والألوان والأشكال والروائح وجميعها « يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل » .

وإن تك جزءاً منه أو قوة له على كل حال فالمحال محقق
إذ الجزء مثل الكل فى سبق نفسه إذن وصفات الشيء للشيء تلحق .
فلا عمل من قوة فى محلها لأن به تلك القوى تتعلق
وإن لم تكن من ذا فما رسمها إذا تجافى عن التحديد عقل ومنطق ؟
على أنكم لا تعرفون سوى الذى إذا ما دعاه الحس لا يتعوق(١)
فقولوا لنا إذ كلنا لجوابكم وشرحكم الشافى غداً يتشوق
أباللمس أم بالشم يدرك حالها لكم أم بذوق أم بالابصار ترمق ؟

(١) إشارة لقول الزهاوى :
فقلت مجيبا : إننى لست واثقا بغير الذى حسى له يتحقق

خاتمة

الحمد لله فى البدء والختام؛ والصلاة والسلام على خير الأنام؛ محمد بن عبد الله؛ شفيعنا عند الله، ووسيلتنا إليه، يوم العرض عليه: يوم لا ينفع مال ولا بنون؛ إلا من أتى الله بقلب سليم!

وبعد فقد تم تدوين ما أفاض الله تعالى به علينا من زيادات فى هذه الطبعة عن طبعاتها السابقة؛ وقد كان الفراغ من تبييضه يوم الخميس المبارك، غرة رمضان المكرم من عام ثمانين وثلاثمائة وألف من هجرة سيد الخلق عليه الصلاة والسلام.

اللهم نجنى من كيد الشيطان اللعين الرجيم، وزدنى إيماناً بدينك القويم، واهدنى إلى صراطك المستقيم، ووفقنى إلى معرفتك، والتفقه فى كتابك؛ واجعل عملى هذا خالصاً لوجهك الكريم، وانفعنى به فى حياتى، وبعد مماتى؛ إنك البر الودود الرحيم!

وأسألك يا مولانا: أن تسدد خطانا، وتمحو خطايانا. وأن تختم لنا بمغفرتك: التى يطمعنا فيها: واسع عفوك، وفيض جودك!

إن ختم الله بغفرانه   فكل ما لاقيته سهل!

وسبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم!؟

ابن الخطيب